نحو تربية إبداعية في منظومتنا التعليمية

محمد بلهادي*

إذا سلمنا بأن عصرنا الحديث هو عصر علم وإبداع، والتقدم فيه للماهرين والمبدعين، فإنه من أوجب الواجبات في وقتنا الراهن الحرص على أن تكون العملية التربوية وسيلة لإظهار القدرات الإبداعية لدى المتعلمين وتشجيعها وصقلها. بناء على هذه الفكرة المبدئية سنحاول إبراز الأهمية التربوية للتربية الإبداعية مع تحديد أهم منطلقاتها، وكذا تجلياتها وسبل دعمها في واقعنا التربوي.

المحور الأول : مفهوم التربية الإبداعية وأهميتها

مفهومالإبداع والتربية الإبداعية:

الإبداع كما جاء في معاجم اللغة، هو الاختراع والابتكار على غير مثال سابق، أبدع الأمر: أتقنه وأجاد فيه1،واستعمل إمكاناته الفكريّة والمهاريّة لإنجازه.2

والإبداع صفة من صفات الخالق سبحانه وتعالى، أبدع الله تعالى الخلق إبداعا،خلقهم لا على مثال3، فهو سبحانه المبدع والبديع، ومنه قوله تعالى واصفاً نفسه: «بديع السماوات والأرض»4

ولا نجد فرقاً في كتب اللغة بين مفهوم الإبداع والاختراع، حتى في الكتب المختصة في تحديد الفروق بين المصطلحات والمفاهيم، ففيمعجم الفروقاللغوية لأبي هلالالعسكري:

"الفرق بين الاختراع والابتداع: أن الابتداع إيجاد ما لم يسبق إلى مثله يقال أبدع فلان إذا أتى بالشيء الغريب وأبدعه الله فهو مبدع وبديع. قال الجوهري، أبدعت الشيء: اخترعته. وقال الزمخشري في الأساس: اخترع الله الأشياء: ابتدعها من غير سبب.»5

* (أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي بالناظور)

أما المفهوم الاصطلاحي للإبداع فيكتنفه نوع من الصعوبة، بالنظر إلى أن عملية الإبداع عبارة عن جملة من الظواهر ذات الوجوه المتعددة، ولذلك فمن الصعب الوصول إلى تعريف محدد ومتفق عليه، خاصة أن أغلب التعريفات تهتم ببعد إبداعي معين، وبمتغير واحد من الإبداعية، كالتركيز على الشخصية المبدعة، أو الوسط الإبداعي، أو الإنتاج الإبداعي...

فتارة يعرف الإبداع كاستعداد أو قدرة على إنتاج شيء جديد وذي قيمة، وتارة أخرى لا يرى في الإبداع استعداد أو قدرة، بل عملية يتحقق النتاج من خلالها، ومرة ثالثة يرى في الإبداع حل جديد لمشكلة ما.[6]

ومن خلال التعريفات التالية لبعض الباحثين سينكشف تفاوت الآراء وعدم الاتفاق على مفهوم موحد للإبداع.

تعريف كزافيي روجيرس «Xavier Rogers»: الإبداع إنتاج جديد يتوصل إليه الفرد من خلال تفاعله مع المثيرات البيئية المتاحة.

ويرى عبد الكريم غريب أن الإبداع قدرة على التخيل السريع لمختلف الحلول الأصيلة، عند مواجهة وضعية مشكلة ما.[7]

وأورد جروان فتحي عبد الرحمن تعريفاً أشمل، فعرف الإبداع بأنه مزيج من القدرات والاستعدادات والخصائص الشخصية، التي ما إذا وجدت بيئة مناسبة يمكن أن ترقى بالعمليات العقلية، لتؤدي إلى نتاجات أصيلة ومفيدة، سواء بالنسبة لخبرات الفرد السابقة أو خبرات المؤسسة أو المجتمع أو العالم، إذا كانت النتاجات من مستوى الاختراقات الإبداعية في أحد ميادين الحياة الإنسانية.[8]

التعريفات المتعلقة بمفهوم الإبداع كثيرة ومختلفة في نفس الآن، وقد يعود هذا الاختلاف إلى صعوبة وتعقد الظاهرة كموضوع للبحث والدراسة، زيادة على شيوع المفهوم وكثرة استخدامه في تخصصات وحقول مختلفة، الأمر الذي زاد من عدد التعريفات المقدمة، وبالتالي غموض أكثر في المفهوم.

وفي مجال البيداغوجيا والسيكولوجيا يرتبط الإبداع بمفهوم الإنتاج التباعدي، الذي يشكل أحد المستويات العليا للعمليات الفكرية، حيث يفيد بحث الفرد، عند مواجهته لمسألة أو مشكل ما، عن كل الحلول الممكنة، الأقل ارتباطاً بالأجوبة المعتادة، بل هي على خلاف ذلك تتسم بالجدية والأصالة، وتكون بالتالي قادرة على إدراك العلاقات بين أحداث لم يسبق الربط بينها، وذلك بغرض إنتاج أشكال جديدة عن طريق المحاولة والخطأ، أو عن طريق المحاولة التجريبية. إنه الفكر الذي يطبع عقل المغامرة، وفكر الفنان والعالم والمؤسس والمجدد.[9]

وبذلك فالتربية الإبداعية يمكن تعريفها بكونها عملية منظمة ومركبة تستهدف تنمية القدرات العقلية والتفكير الإبداعي لدى المتعلم، في محيط تربوي مناسب يوظف أساليب أكثر إيجابية تتحدى القدرات العقلية لديه، وتدفع به إلى حب الاستطلاع والاكتشاف والتجريب، للحصول على إنتاجات أصيلة ومفيدة ومبتكرة.

أهمية التربية الإبداعية:

تحظى الأبحاث والدراسات المتعلقة بالتربية الإبداعية بأهمية بالغة في البلدان المتقدمة، من خلال التركيز على الفكر والذهن كطاقة فعالة ومنتجة.

ويشكل التفكير الإبداعي أحد أهم الأهداف التربوية التي يسعى إلى بلوغها كل نظام تعليمي يريد لنفسه ولوج مجتمع المعرفة في الألفية الثالثة.

من شأن التربية الإبداعية العلمية الخلاقة إمداد المجتمع بالأفراد المبدعين والمؤهلين للمساهمة الفاعلة في كل نهضة مجتمعية، من خلال القدرات الابتكارية والمهارات الإبداعية التي يمتلكونها، والتي يمكن اعتبارها رأس المال الحقيقي لكل مجتمع متطلع نحو التنمية والتقدم.

ومن أهم مواصفات الإنسان الحديث القادر على مجابهة تحديات العولمة والمساهمة بدينامية في المشروع الإنمائي لمجتمعه، قدرته على إنتاج أفكار ابتكارية وإبداعية، وتسلحه بالمبادرة الذاتية، وتحليه بروح الاستقلالية.

إن هدف أي سياسة تعليمية كيفما كانت نية واضعيها، وكيفما كانت طبيعة النظام السياسي السائد هو إيجاد إنسان يتميز في سلوكه وفي نوعية تفكيره وفي اتجاهاته. وهذه الرغبة في تكوين إنسان يتميز بالمواصفات السابقة الذكر، وبناء البرامج على أساسها، واقتراح طرق تعليمية ووسائل ملائمة لتنفيذها، يدخل ضمن تحقيق مشروع مجتمعي تفصله قطيعة واضحة عن ممارسة تربوية لا تدخل في اعتبارها تلك الأبعاد في تكوين الإنسان، بل تقوم على الشحن والاستهلاك الآلي للمعرفة، وعلى السلطوية والاتكالية.[10]

وإذا كان الإبداع والاهتمام بالمبدعين مهماً بالنسبة للمجتمعات المتقدمة، فإنه ينبغي أن يكون أكثر أهمية للدول النامية، إذ أن الأجيال المبدعة من الركائز الأساسية المساهمة في التقدم العلمي والتنمية الحضارية في العصر الحديث.

من هذا المنطلق يجب على جميع المتدخلين في العملية التربوية والمسؤولين عنها، الاقتناع بأهمية الإبداع في تطوير عمل المؤسسة التعليمية وإشعاعها المجتمعي والحضاري، وكذلك

الاقتناع بأهمية المبدعين كأسلحة للتنافسية العالمية لاسيما في عصرنا الراهن الذي لا يعترف إلا بالكفاءات العلمية والقدرات الإبداعية.

المحور الثاني : المرجعيات الوطنية في التربية الإبداعية

الميثاق الوطني للتربية والتكوين:

ركز الميثاق على الإبداع كقيمة أساسية في السياسة التربوية الوطنية، وذكرها في أكثر من دعامة من دعاماته التسع عشرة، فنجد ضمن أول مرتكز من المرتكزات الثابتة المحددة في القسم الأول (المبادئ الأساسية) من الميثاق تنصيصه على» تكوين المواطن المتصف بالاستقامة والصلاح، المتسم بالاعتدال والتسامح، الشغوف بطلب العلم والمعرفة في أرحب آفاقهما، والمتوقد للاطلاع والإبداع، والمطبوع بروح المبادرة الإيجابية والإنتاج النافع».[11]

ويحدد الميثاق ضمن محور الغايات الكبرى، خلق وسط إبداعي كإحدى منطلقات إصلاح نظام التربية والتكوين، حيث يؤكد على "توفير الشروط وفتح السبل أمام أطفال المغرب ليصقلوا ملكاتهم، ويكونون متفتحين مؤهلين وقادرين على التعلم مدى الحياة."[12]

وهذه التنمية والتأهيل الفكريين للمتعلمين، تقدم بشكل تدريجي ومتناسب مع نضجهم الجسدي والذهني، وقد عبر الميثاق عن ذلك بـ « التقوية التدريجية لسيرورتهم الفكرية».[13]

ويؤكد الميثاق على أن الوسط التعليمي ينبغي أن يمنح للمتعلمين "فرصة إظهار النبوغ كلما أهلتهم قدراتهم واجتهاداتهم".[14] ويشير كذلك إلى أن من بين التزامات الدولة في ميدان التربية والتكوين هناك «العمل على تشجيع العلم والثقافة والإبداع».[15]

وفي الدعامة الثالثة والمتمحورة حول السعي إلى تلاؤم أكبر بين النظام التربوي والمحيط الاقتصادي، نجد محوراً مخصصاً لانفتاح المدرسة على محيطها وعلى الآفاق الإبداعية، والذي يتضمن مجموعة من الإجراءات العملية التي بمقدورها الرفع من الحس الإبداعي لدى المتعلم، وهي:

- « تبادل الزيارات الإعلامية والاستطلاعية.
- تنويع المعدات والوسائل الديداكتيكية.

تنظيم تمارين تطبيقية وتداريب توافق سن المتعلمين ومستواهم الدراسي.

التعاون على تنظيم أنشطة تربوية وتكوينية (كتجريب منتجات أو خدمات أو تجهيزات أو طرائق تكنولوجية، أو إبداع وعرض أعمال مسرحية أو موسيقية أو تشكيلية أو غير ذلك)."[16]

وفي المجال الثاني من الميثاق والمتعلق بالتنظيم البيداغوجي، نجد في الدعامة الرابعة منه، الهدف التالي، المسطر في مرحلة التعليم الابتدائي: «تنميةمهارات الأطفال والإبرازالمبكرلمواهبهم».[17]

وفي مرحلة التعليم الإعدادي تم التنصيص على أن المدرسة الإعدادية ترمي- مما ترمي إليه- إلى «دعم نمو الذكاء التجريدي لليافعين».[18]

وتشجيعاً للإبداع والمبدعين نص الميثاق في الدعامة الحادية عشرة على «إقامة مباريات التميز في مختلف ميادين التعليم والإبداع».[19]

ولا يستهدف الميثاق الوطني للتربية والتكوين بالتربية الإبداعية التعليم المدرسي فحسب، بل يطمح كذلك إلى أن تكون الجامعة المغربية «جامعة منفتحة ومرصدا للتقدم الكوني العلمي والتقني، وقبلة للباحثين الجادين من كل مكان، ومختبرا للاكتشاف والإبداع».[20]

الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب وعيد الشباب 20 غشت 2012:

شكل هذا الخطاب والذي ركز الجزء الأكبر منه على قضايا التربية والتعليم، مرجعية رئيسة في التربية الإبداعية المنشودة، حيثكرر صاحب الجلالة مصطلحي الإبداع والابتكار مرات عدة في خطابه هذا (سبع مرات) ، وأكد على ضرورة "الانتقال من منطق تربوي يرتكز على المدرس وأدائه، مقتصرا على تلقين المعارف للمتعلمين، إلى منطق آخر يقوم على تفاعل هؤلاء المتعلمين، وتنمية قدراتهم الذاتية، وإتاحة الفرص أمامهم في الإبداع والابتكار"21. وشدد على أن الوقت قد حان لتجاوز الأهداف الكمية للمؤسسة التعليمية، لتحقيق أهداف نوعية في مستوى الرهانات المطروحة، «إذ لا ينبغي للمنظومة التربوية أن تضمن فقط حق الولوج العادل والمنصف، القائم على المساواة، إلى المدرسة والجامعة لجميع أبنائنا. وإنما يتعين أن تخولهم أيضا الحق في الاستفادة من تعليم موفور الجدوى والجاذبية، وملائم للحياة التي تنتظرهم..

كما يجب أن تهدف إلى تمكين الشباب من تطوير ملكاتهم، واستثمار طاقاتهم الإبداعية، وتنمية شخصيتهم للنهوض بواجبات المواطنة، في مناخ من الكرامة وتكافؤ الفرص، والمساهمة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وذلكم هو التحدي الأكبر الذي تطرحه الظرفية الراهنة".22

ولبلوغ هذه الغايات أشار جلالة الملك إلى أن»الأمر لا يتعلق، في سياق الإصلاح المنشود، بتغيير البرامج، أو إضافة مواد أو حذف أخرى، وإنما المطلوب هو التغيير الذي يمس نسق التكوين وأهدافه. وذلك بإضفاء دلالات جديدة على عمل المدرس لقيامه برسالته النبيلة، فضلا عن تحويل المدرسة من فضاء يعتمد المنطق القائم أساسا على شحن الذاكرة ومراكمة المعارف، إلى منطق يتوخى صقل الحس النقدي، وتفعيل الذكاء، للانخراط في مجتمع المعرفة والتواصل.»[23]

يمكن القول أن جلالة الملك بهذا الخطاب قد وضع خريطة طريق للرقيبالمنظومة التربوية من خلال مجموعة من الخطوات العملية الكفيلة بتحقيق تعليم إبداعي يساهم في بناء مغرب المستقبل.

المحور الثالث : واقع التربية الإبداعية في منظومتنا التربوية

التربية الإبداعية في مدارسنا:

تلعب المدرسة بما فيها من إدارة ومدرسين وغيرهم دوراً مهماً في الكشف عن طاقات الطفل الإبداعية، وتشكيلها، وتنميتها، الأمر الذي يؤكد أهمية وجود المدرس المبدع (أو على الأقل المقدر للإبداع)، الذي يعمل على تعليم وتعلم التفكير للمتعلمين، ويطلق العنان لخيالاتهم وطاقاتهم الإبداعية، ويبني فيهم الإنسان المجتهد المجدد.

لكن الملاحظة المباشرة لأحوال مدارسنا تظهر بأن أغلبالأنشطة التربوية المقدمة فيها تتجه في طريق يتعارض مع نمو التفكير الابتكارى الإبداعي للمتعلمين. إضافة إلى أن أغلب الممارسين التربويين لا يدركون القوانينالأساسية للتربية الإبداعية. فيقتصر عمل الكثير منهم على تزويد الأطفال بالمعلومات من خلال الحفظ والاستظهار، والاعتماد على الذاكرة وحدها، وهذا القصور الكبير في تعليم طريقة التفكير الصحيحة، لا يمكنه إعداد الفرد المفكر الناقد المستنير، والمبتكر للحلول، الذي يستطيع أن يسير بمجتمعه خطوات إلى الأمام، بتفكيرهالعلمي المنطقي السديد.

ولقد كشفت الكثير من الدراسات حول نمو الطفل وتطوره المعرفي، أن الطفل يولد ولديه الميل الفطري للاكتشاف والاستقصاء والتساؤل والتخمين، ولكن عادة ما يحصل تغيير سلبيٍ وكبحلهذه القدراتبعد ولوج أسوار المؤسسات التعليمية، ويمكن تسمية هذا التغيير هدماً ممنهجاً للمؤهلات الإبداعية للمتعلمين.

معيقات العمل بالتربية الإبداعية:

يواجه العمل بالتربية الإبداعية مجموعة من الصعوبات التي تحول دون تنمية وترسيخ التفكير الإبداعي كقيمة تربوية وكآلية علمية من شأنها الدفع بالمتعلمين إلى إنتاجات أصيلة وذات قيمة.

ويمكن تصنيف هذه المعيقات، إلى معيقات ذاتية/ داخلية مرتبطة بشخصية المتعلم المستهدف، ومعيقات موضوعية/ خارجية متعلقة بالوسط التعليمي وبالعملية التربوية والأطراف المتدخلة فيها.

معيقات ذاتية/ داخلية:

معيقات إدراكية: الإدراك عملية ذهنية تعمل على الانتقاء بين المعلومات وتنظيمها وتفسيرها وإعطائها معنى، بحيث تعكس الصورة التي ينظم بها الفرد خبراته وانطباعاته التي يتعامل مع البيئة على أساسها[24]، والمعيقات الإدراكية متعلقة تحديداً بإدراك أو تصور البيئة التي من حولنا، مثل صعوبة فهم المشكلات وعزلها، وضعف نتائج عملية الملاحظة للظاهرة المدروسة، أو التحديد الضيق للوضعية المشكلة، والنظرة التجزيئية غير الشاملة لها، الناتجة عن الفشل في الاستخدام الجيد للحواس.

معيقات تواصلية: تظهر في صعوبة التواصل مع الآخرين، وعدم القدرة على التعبير عن الأفكار بشكل واضح، مما يؤدي إلى عدم فهم الرسالة الإبداعية من قبل الطرف الآخر بسبب صعوبة فك شفرتها.

معيقات حضارية: هي عوامل تتعلق أساساً بالمحيطين بالفرد، مثل عدم القدرة على مجارات ذوي القدرات العقلية العالية، والاعتماد على مساعدة الآخرين والسماح لهم باتخاذ القرارات بالنيابة في اختيار الصواب من الخطأ، أو المبالغة في التنافسية التي تقود إلى الكراهية والانقسام.

معيقات انفعالية : لها ارتباط بالجانب البسيكولوجي والاستعداد الذاتي للفرد، مثل ضعف الدافعية الداخلية للعمل وعدم التحمس للجديد والتجديد، أو الخوف من الوقوع في الخطأ والفشل.[25]

معيقات موضوعية/ خارجية:

- العمل بالطرائق التعليمية التقليدية : لازالت نسبة مهمة من فصولنا الدراسية تعتبر المتعلم كمتلقٍّ سلبي، وذهنه صفحة بيضاء يخط عليها المدرس ما يشاء، كإسفنج الماء الذي عليه أن يمتص المعرفة، أو كوعاء فارغ يملأ بكم من المعلومات التي يطالب بحفظها بشكل آلي، ثم ردها بعد ذلك أثناء الاختبارات، وهذا النمط هو الذي يسميه باولو فرايري بـ»التعليم البنكي»، أي أن العملية لا تعدو أن تكون شحناً للذاكرة بكم من الودائع المعرفية التي يطالب المتعلم في النهاية بردها، لذلك يصح أن يسمى «تعليم إيداع» بدل أن يكون «تعليم إبداع».

هذا زيادة على المناهج المكتظة التي تؤكد المقاربة الكمية للعملية التعليمية – التعلمية، والتي تعوق تنمية القدرات الإبداعية لدى المتعلمين، خاصة وأن أغلب المدرسين إن لم نقل كلهم، همهم الأكبر- وهم مجبرون على ذلك- هو إكمال المقرر من ألفه إلى يائه، دون اكتراث بتنمية المواهب والتفكير الإبداعي.

وتتحدد مصداقية بيداغوجيا الإبداع في المدرسة الحديثة المنفتحة لا المدرسة التقليدية المنغلقة على ذاتها، لأن الأخيرة تنمط أفكار أفرادها وتجهض كل تمرد أو اجتهاد إبداعي.

- السلطوية والحد من المبادرة الفردية: أخشى ما نخشاه هو أن تعود فصولنا كلها هادئة منضبطة لا تكاد تسمع لها همسا، بفعل الطاعة العمياء، والانقياد التام، والمبالغة في تقدير النظم الداخلية، فالسلطوية المفرطة التي تجعل من الفصل الدراسي ثكنة عسكرية، لا يطالب المتعلم داخلها بأكثر من أن يخضع لقواعد السلوك والانضباط، وبذلك تحولت مدارسنا إلى مراكز تدجين، وحظائر ترويض، وحصار للإبداع الفردي والجماعي، لا مؤسسات لتحرير الشخصية الإنسانية وتنمية العقول وتفتح الإبداع. مثل هذه المدارس هي التي تقبر المواهب وتئد المبدعين، وتلد بدلهم المدجنين.

كما أن المدرسة التي يسيطر عليها جو الصرامة والتسلط هي غالباً ما تكون أقل المدارس في استثمار الإبداع والتفكير الإبداعي لدى متعلميها.26

- استعمال العقاب بأشكاله المختلفة: رغم أن المواثيق والقوانين تمنع وتجرم تعنيف المتعلمين، إلا أن هذا الأمر لا يزال منتشراً في مدارسنا بشكل ملفت، وينظر المدرس إلى العقاب بأنه «أحب الحرام».

وبحسب نتائج الدراسة الميدانية التي قامت بها المدرسة العليا لعلم النفس في أوساط المدارس الابتدائية المغربية، فإن 87% من الأطفال المستجوبين (90% من الذكور و84% من الإناث) صرحوا أنهم تعرضوا للضرب من طرف المدرسين.

و52% من المستجوبين (56,4% من الذكور و50,4% من الإناث) أكدوا بأنهم كانوا عرضة للضرب بالعصي والمسطرات وخراطيم الماء ...

فيما أكد 54% من المدرسين هذا النوع من العقاب اتجاه التلاميذ والتلميذات.

وبحسب الدراسة دائماً فإن 73,1% من المستجوبين تنتابهم مشاعر سلبية اتجاه المدرسة عند تعرضهم للعقاب (12,8% كراهـية المدرسة - 32.9% إحســاس بالخوف - 27,3% إحساس بالظلم).[27]

ولا يخفى ما للعنف (بدنياً كان أونفسيا) من انعكاسات سلبية عديدة، فإن كان الذي يمارس العنف يحاول أن يحقق الانضباط المأمول، فهو كذلك يقتل المواهب ويئد الإبداع في شخصية المتعلم إلى غير رجعة.

المعيقات السالفة الذكر والتي تطغى عليها الذهنية التقليدية والجمود الفكري المعادي للتغيير والتجديد، لا تعارض التربية الإبداعية فحسب بل تقضي على كل جهود الإصلاح التربوي التي تروم الجودة الشاملة للقطاع. وهذا هو التحدي الرئيس أمام التربية الإبداعية، الذي يتمثل

أساساً في ممانعة القشرة الثقافية في المجتمع من آباء ومدرسين يشعرون بعدم الارتياح إزاء الاهتمام بالإبداع في الفصل الدراسي، لأنه يعني - من وجهة نظرهم- حث المتعلمين على التمرد وعدم الالتزام، وبالتالي فهم يفضلون جعل هذه الفصول رفوفاً وصناديقاً لحفظ البشر، خوفاً من خروجهم عن الانضباط وحدود اللياقة.

المحور الرابع : شروط التربية الإبداعية

حرية الاختيار:

من المداخل الرئيسة المعتمدة حالياً في مناهجنا وبرامجنا التعليمية، نجد التربية على الاختيار، وهذا المبدأ النظريةيفتح المجال للمتعلمين للاختيار واتخاذ القرار بكامل الحرية، من خلال السماح لهم بالمبادرة الخلاقة والفاعلة،وإتاحة الفرص أمامهم للإسهام في حل مشكلاتهم، بدلاً من تقديم الحلول الجاهزة، مع تدريبهم على إدراك المشكلة من جميع جوانبها، وافتراض الحلول وتقييمها، لتنمية التفكير العلمي والإبداعي لديهم.

ويرى "كارل روجرز" أن تنمية الإبداع منوط بتوفر شرطين أساسين هما:

السلامة النفسية: ولتحقيقها لابد من تقبل الفرد واحترام أدائه وشخصيته.

الحرية النفسية : وتتحقق من خلال إتاحة الفرص المختلفة للفرد للقيام بالاستطلاع والاكتشاف، والوصول للمعرفة واكتساب الخبرة.[28]

ويقول الأديب والمربي الروسي الكبير "تولستوي": "إن الحرية شرط لكل تعليم حقيقي"، وبذلك تنفتح هذه الرؤية على تعليم الحرية لتجعل من حرية المدرس والمتمدرس شرطاً لقيام تعليم حقيقي.29

إن مبدأ التحرر يستمد مشروعيته من طبيعة الإنسان، ومن ميله إلى تغيير واقعه نحو الأحسن، ومن سعيه إلى التطلع نحو المجهول من أجل المغامرة والإبداع والاكتشاف والمعرفة، في سبيل إدراك سنن الله في الكون. ولا يتم هذا الاكتشاف والإبداع إلا في ظلال الحرية التي تجعل الإنسان متحرراً في فكره واختياراته...30

إن التربية الإبداعية تربية تحررية، لأنها تحرر النفس من الخوف والضعف، كما تحرر العقل من التقليد والتبعية، أو التقوقع والانغلاق في داخل أفق ضيق، إلى الانطلاق نحو رحابة التجديد والخلق والابتكار.

وبذلك تسعى التربية الإبداعية إلى تنمية جميع قدرات الفرد، سواء على المستوى المعرفي أو العاطفي الوجداني أو الحس حركي، من أجل أن يتحرر الفرد ويبرز طاقاته ويرتقي

بأدائه ويتحمل مسؤولياته للمساهمة بفعالية في إيجاد الحلول التنموية وبناء الحضارة المجتمعية.

نبذ التعنيف وإبداله بالتحفيز:

قدرة الطفل الإبداعية تُغذَّى بالاستحسان والتشجيع والتحفيز، وتكبح بالتعنيف، لذلك يقول فاخر عاقل: "إن الذي يعاقب، يجب أن يحسن الإثابة قبل أن يحسن العقوبة"31، فإذا كانت الحرية هي الشرط الأول في الإبداع، فنبذ العنف هو شرط الحرية، وإذا حضرت لغة العصا غابت لغة الحوار وغابت الحرية، فيغيب معها الإبداع، وبالتالي فالإبداع والعقاب نقيضان لا يجتمعان بحال.

ومن المؤكد أن المحيط الذي يعيش فيه الفرد ونوع التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها، وما إذا كانت هذه التنشئة ذات طابع تسلطي، أم أنها تنشئة تنظر إلى الفرد على أنه شخص فريد تحترم شخصيته وتقدر إمكاناته وتشجع أعماله، بعيداً عن الإكراه والإهانة والإشعار بالإثم، كل ذلك يعمل على تكوين شخصية الفرد المبدع المبتكر.[32]

والتربية الإبداعية عموماً تتطلع إلى أجواء فصلية أرقى ترفع القيود عن روح الإبداع والمبادرة لدى الناشئة، وتساهم في تحقيق التواصل الفعال بين مكونات العملية التربوية، وتعمل على التحفيز المستمر للمتعلمين على التعلم الذاتي والاستقلالية والنقد البناء والفكر الحر المسؤول.

تبني طرائق بيداغوجية حديثة :

إن التربية الإبداعية حين تمتزج بالطرائق التعليمية الفعالة والنشيطة، تعطينا نتائج عالية من التفكير الابتكاري والإبداعي، ويصبح المتعلم مشاركاً بنفسه في بناء المعارف مستعملاً مبادرته الإبداعية، بدلا من التلقي السلبي من المدرس أو الكتاب المدرسي، من بين هذه الطرائق النشيطة التي تحفز المتعلم على المبادرة الشخصية، والأفكار الإبداعية نجد البيداغوجيا الفارقية التي تهتم بالفروق الفردية بين المتعلمين، وتعمل على تنمية استعداداتهم وقدراتهم إلى أقصى حدودها وإمكانياتها، وبيداغوجيا المشروع التي تعطي الفرصة للمتعلمين لأجل إظهار اقتراحاتهم ومواهبهم في حل المشكلات بطريقة جماعية تعاونية منظمة.

البيداغوجيا الفارقية :

الأطفال مختلفون في الخواص الجسمية والعقلية والسلوكية، ولذلك تجدهم متفاوتون التفاوت كله في دقة الملاحظة، وإدراك ما بين الأشياء من علاقات، أو من أوجه الشبه وأوجه الخلاف،

ومتفاوتون في القدرة على التخيل والتصور، والتفكير والتذكر، وقوة الانتباه والشعور الوجداني... ويستبعد تماماً أن تكرر الطبيعة نفسها – في مخلوق معين-، وإنما هي في كل آونة تأتينا بجديد، وتطلع علينا بإبداع وخلق وتجديد، حتى ولو دق الشبه بين اثنين، فإن أوجه التمييز تكون أدق.[33]

وبحسب «فيليب بيرينو» ليس هناك متعلم فريد يمَكن من العمل ببيداغوجيا فريدة، وذلك لسببين اثنين :

هناك تنوع كبير في الاستعدادات، وطرائق العمل، والاشتغال الذهني، والعلائقي...الخ.

يواجه المدرس مجموعة غير متجانسة مهما كانت قوة الانتقاء الأولي للتلاميذ.[34]

البيداغوجيا الفارقية تساهم في تكافؤ الفرص التعليمية باعتبارها تعطي الفرصة لكل فرد للوصول إلى أقصى نقطة تعليمية تسمح بها قدراته. وبالتالي فإن المبدع يمكنه أن يصل بتميزه وطاقته إلى أعلى الدرجات لتنطلق وتفيد صاحبها ومجتمعه. فالتعليم الحقيقي هو "تعليم كل الفرد وكل فرد"، وكل الفرد تشمل قدراته وطاقاته ومواهبه.[35]

وقد أظهر الفكر التربوي اهتماماً كبيراً بكيفية استخدام معرفة الفروق الفردية لكي يكون لها تأثير فعال في العملية التربوية، وأكد أن على المدرس أن يعرف أن لدى كل فرد من الأفراد قدرات كثيرة لم يستخدمها بعد، وأن الأفراد لا يظهرون كل ما يمكنهم إنجازه بالفعل، وأن الطريقة التي يتعلم بها الفرد تلعب دوراً كبيراً في ذلك، إذ أن الطريقة الواحدة في التعليم قد تنمي طاقات شخص معين، ولكنها في نفس الوقت قد تطفئ قدرات طالب آخر.[36]

هذه الاختلافات والفوارق بين الأفراد لا مناص من اعتبار أهميتها والعناية بها، ولا يستقيم التغاضي عنها أثناء العملية التربوية، أو مؤاخذة العاجزين فكرياً بما ليس في مقدورهم ولا هو في مستطاعهم، ولا يد لهم فيما قصرت عنه مداركهم وأفهامهم. لذا وجب تبني طرائق عمل تشجع الفرد المبدع على المضي في سبيله بتوسيع أفق إبداعه من جهة، وتبحث من الجهة المقابلة بروية عن العلاجات البيداغوجية الملائمة الكفيلة بالتغلب على المعيقات المادية والمعنوية لدى الفئات المتخلفة، بغية الدفع بها إلى اللحاق بركب الإبداع والمبدعين.

بيداغوجيا المشروع :

هي بيداغوجيا تقوم على تقديم مشروعات للتلاميذ، في صيغة وضعيات تعلمية تعليمية، تدور حول مشكلة واضحة، تجعل المتعلمين يشعرون بميل حقيقي لبحثها وحلها حسب قدرات

كل منهم، وبتوجيه وإشراف من المدرس، وذلك اعتماداً على ممارسة أنشطة ذاتية متعددة في مجالات شتى. وتنطلق هذه البيداغوجيا من تجاوز الحدود الفاصلة بين المواد الدراسية، حيث تتداخل هذه المواد لكي تتمحور حول مجموعة من الأنشطة الهادفة، وبهذا تصبح المعلومات والمعارف وسيلة لا غاية في ذاتها. أما خطوات طريقة المشروع، فتتحدد في ما يلي[37]:

اختيار المشروع وتحديد أهدافه بإشراك التلاميذ والتداول معهم في شأنه ليكون متوافقاً مع ميولهم ورغباتهم.

تخطيط المشروع وتنظيمه بشكل تشاركي بين المدرس والمتعلمين، بتقسيمه إلى مراحل واضحة وخطوات محددة، وتحديد الوسائل اللازمة، وكذلك المدة الزمنية الضرورية لتنفيذ المشروع.

تنفيذ المشروع من قبل مجموعات التلاميذ تحت إشراف المدرس، وفقاً لما تم الاتفاق عليه في مرحلة التخطيط والتنظيم.

تقييم المشروع كآخر مرحلة يناقش فيها الإنجاز ويقوم، من خلال التعرف على مواطن الضعف والخلل، والعمل على تحاشيها مستقبلاً.

التدريس بطريقة المشروع تعود المتعلمين على اتباع الأسلوب العلمي والتفكير الإبداعي في حل الإشكالات التي تعترضهم.

اعتماد تقنيات تواصلية وتنشيطية فعالة:

المدرس مطالب بالاجتهاد في إبداع وسائل وآليات قمينة بجعل المنظومة التربوية تساير التحولات العلمية الحديثة، باعتماده على تقنيات تواصلية حديثة وتنشيط تربوي فعال يزرع الحس الإبداعي في المتعلمين، من هذه التقنيات التواصلية التنشيطية: تقنية العصف الذهني، تقنية حل المشكلات، تقنية لعب الأدوار...وكلها آليات تعمل على تقوية الإحساس بالأمان المعرفي والوجداني، وتقلص من القلق، وتهدف إلى تبادل ونقل الخبرات والمعارف والمواقف، زيادة على تمكينها من استلهام الأفكار والتدريب على اتخاذ القرار.

العصف الذهني:

تعرفهذه التقنية كذلك بالزوبعة الذهنية، ويقصد بها توليد وإنتاج أفكار وآراء إبداعية من أفراد ومجموعات في حل مشكلة معينة، وتكون هذه الأفكار مفيدة وجيدة، وذلك يكون الذهن في حالة من الإثارة والجاهزية في كل الاتجاهات لتوليد أكبر قدر ممكن من الأفكار حول المشكل المطروح أو الموضوع المدروس.[38]

ويقوم هذا الأسلوب على تصور حل المشكلة على أنه موقف له طرفان يتحدى أحدهما الآخر، العقل البشري من جانب، والمشكلة التي تتطلب حلاً من جانب آخر. ولابد للعقل من الالتفاف حول المشكلة والنظر إليها من أكثر من جانب ومحاولة تطويقها بكل الحيل، والتي تتمثل في الأفكار التي تتولد بنشاط وسرعة تشبه العاصفة.[39]

ويرتكز العصف الذهني على مبادئ، منها:

ضرورة تجنب النقد والأحكام القيمية على الأفراد.

إطلاق حرية التفكير والترحيب بكل الأفكار مهما يكن نوعها أو مستواها.

الحصول على أكبر قدر ممكن من الأفكار بغض النظر عن جودتها.

البناء على أفكار الآخرين وتطويرها.[40]

سيرورة إنجاز التقنية تبدأ بتجميع الأفكار والاقتراحات بدون تعليق أو تحليل لاستكشاف تمثلات المتعلمين حول الموضوع المستهدف، ثم بعد ذلك تتم مناقشتها وتقييمها، ليتم في الأخير التوافق على الاختيار الأفضل والحل الأنسب للإشكالية المطروحة.

تقنية حل المشكلات بشكل إبداعي :

تقوم على مجموعة من الأفكار، أهمها ما يلي:

عملية حل أي مشكلة حلا ابتكاريا أو إبداعيا تنطوي على ثلاث عمليات صغرى متعاقبة أو متداخلة أحياناً، وهي:

ملاحظة المشكلة والإحاطة بجوانبها المختلفة.

معالجة المشكلة بما يعين على تحديدها وبلورتها ومحاولة التوصل إلى الحلول الملائمة لها بصفة عامة، والحلول الإبداعية والجديدة بصفة خاصة.

تقييم الأفكار التي تم التوصل إليها.

السلوك الإبداعي له ناتج يتميز بصفات دالة عليه، هي:

التفرد والأصالة .

القيمة والجودة .

الجدة والحداثة .

لكي يكون الفرد مبدعاً لابد أن تتوفر لديه درجة عالية من القدرة على التفكير التباعدي والحساسية للمشكلات المحيطة به.[41]

تقنية لعب الأدوار:

تعدهذه التقنية من النماذج التعليمية المتبعة لتحسين التفكير التخيلي والإبداعي لدى المتعلمين، حيث تهدف إلى تنمية مهارات الأفراد على التعبير اللغوي والجسدي، والتموقع في الفضاء، وبناء القدرة على الملاحظة الدقيقة، والتدرب على بناء مواقف شخصية مثمرة، من خلال الارتباط الوجداني بالأدوار المتقمصة وبتجارب الآخرين وخبراتهم.

للعمل بهذه التقنية يتم تقديم الموضوع، ثم تترك فرصة للتفكير، فيتم تجميع أكبر قدر من الأفكار حول الموضوع المقترح، ويفتح بعدها باب النقاش لإعطاء الموضوع شكلاً حوارياً، فيعين المتعلمين للعب الأدوار بالتناوب وبدون تدريب مسبق، ولا يتدخل المدرس إلا بشكل عرضي وللضرورة فقط. وفي نهاية اللعبة يفتح باب النقاش من جديد للمتعلمين لتقييم وتقويم ما شاهدوه وشاركوا فيه.

ما سلف ذكره من تقنيات تنشيطية هي نماذج فقط للأساليب الإبداعية التي يمكن الاستعانة بها للكشف عن الطاقات الإبداعية للمتعلمين والمتعلمات والرفع من مستواها، وما لم يذكر من التقنيات أكثر مما ذكر، الأمر الذي يستدعي حصر هذه الأساليب والتقنيات، ومعرفة أكثرها فاعلية في تطوير القدرات والمهارات الإبداعية، حتى يتم توظيفها في العملية التربوية التوظيف الأمثل.

لا يسعنا في نهاية هذه الورقة إلا أن نجدد التأكيد على أهمية التربية الإبداعية في الإقلاع التربوي المنشود ومن خلاله الإقلاع المجتمعي والحضاري، لذلك يمكننا الجزم بأن هذا النمط من التربية أصبح ضرورة ولم يعد اختياراً، باعتبارها تربية المستقبل، وهي كفيلة بإنتاج السواعد والعقول البانية لمستقبل أفضل. لكن الإبداع والابتكار ليس مجرد شعار يرفع، وإنما ينبغي أن يكون هدفاً مركزياً تسعى لبلوغه مؤسسات التربية والتكوين قولاً وعملاً. كما يجب على جميع المتدخلين في العملية التربوية كل من موقع مسؤوليته مساندة الأفكار والمشاريع الإبداعية مادياً ومعنوياً، لأنها السبيل إلى التقدم العلمي ومنافسة الأمم الرائدة في هذا المجال، ولا أدل على هذا الكلام ما حققه مشروع «التلميذ المبدع الاجتماعي» الذي أسسه ويشرف عليه إطار وطني، بفوزه بالجائزة الدولية الأولى كـ«أحسن مشروع وطني في العالم في مجال تطوير الأعمال» المسلمة من قبل الغرفة الاقتصادية الدولية ببروكسيل في شهر نونبرمن سنة[42]2011. ثم حاز نفس المشروع في شهر مارس من سنة 2012، على جائزة دولية أخرى كـ «أفضل مقاربة لإدخال فكر المقاولة في

ميدان التربية والتعليم». منحتها المنظمة الدولية البريطانية «علم الرجل كيف يصطاد Teach a man how to fish"[43]، اعترافا منها بمدى قوة المشروع التنموي وأثره البارز في ميدان التربية والتعليم وكيفية تأهيل التلميذ والطالب لولوج سوق الشغل بقدرات عالية المستوى.

مثل هذه الأفكار الإبداعية الرائدة والمشاريع التنموية هي مطمح التربية الإبداعية، التي تسعى لخلق جيل من الشباب الحامل لقيم التجديد والابتكار،حتى تتبلور في مشاريع لها آثار اجتماعية واقتصادية تنعكس إيجاباً على المجتمع، وتدفع بالبلد إلى اللحاق بركب العلم والحضارة.

الهوامـــش:

1 - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمدمختارعبدالحميدعمر،عالمالكتب، الطبعةالأولى، 1429 هـ - 2008 م، (1/ 171).

2 - المرجع السابق، (3/ 1746).

3 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير،أحمدبنمحمد الفيوميالحموي،المكتبةالعلمية – بيروت، (1/ 38).

4 - سورة البقرة، الآية: 117.

5 - معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري،تحقيق بيت اللهبيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسينبـ«قم»، الطبعة الأولى، 1412هـ ص.9.

6 - التربية الإبداعية ضرورة وجود، عبد العال إبراهيم، دار الفكر، عمان-الأردن، الطبعة الأولى، 1425هـ ص.65.

7 - المنهل التربوي، عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006، (1/227).

8 - الإبداع، جروان فتحي عبد الرحمن، دار الفكر، عمان-الأردن، الطبعة الأولى، 2002ـ ص.22.

9 - المنهل التربوي، عبد الكريم غريب، (1/227).

10 - السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل، لحسن مادي، منشورات علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة الأولى: 1999. ص. 140.

11 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين،، اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين، الرباط، أكتوبر1999، المادة: 1.

12 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 6.

13 - نفس الرجع السابق.

14 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 7.

15 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 13.

16 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 48.

17 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 66.

18 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 68.

19 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 122.

20 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المادة: 10.

21 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب وعيد الشباب 20 غشت 2012، الرباط.

22 - المرجع السابق.

23 - المرجع السابق.

24 - معوقات الإبداع الإداري في الأجهزة الحكومية في مدينة الرياض، ضيف الله النفيعي، مجلة دراسة الخليج والجزيرة العربية، العدد: 116، 2004م، ص. 16.

25 - تربية الإبداع وإبداع التربية في مجتمع المعرفة، مجدي عزيز إبراهيم، عالم الكتب للنشر- القاهرة، الطبعة الأولى: 2005، ص.73.

26 - نحو مفاهيم تربوية معاصرة في الألفية الثالثة، خالد أبو شعيرة و ثائر غباري، مكتبة المجتمع العربي، عمان- الأردن، الطبعة الأولى: 2010م/1431هـ ص.171.

27-Violence à l'école;enquête réalisé dans le milieu scolaire marocain par l'école supérieure de psychologie à Casablanca, avec l'appui de l'UNICEF; Ministère de l'Education National Marocain; 2006. p.p : 23-28.

28 - الموهبة والتفوق، خليل عبد الرحمن المعايطة ومحمد عبد السلام البواليز، دار الفكر، عمان – الأردن، الطبعة الثانية: 2004،ص. 190.

29 - تربية القهر، تربية الحرية...أصوات من الفكر التربوي المعاصر، محسن خضر، دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الأولى: 1430هـ/2009م، ص:76.

30 - مكونات العملية التعليمية في الفكر التربوي الإسلامي، محمد البوزيري، منشورات دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة الأولى: 2005، ص. 40.

31 - معالم التربية، فاخر عاقل، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الخامسة (1983)، ص:336.

32 - المراهق والعلاقات المدرسية، أحمد أوزي، منشورات علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 1432هـ/2011م. ص. 74.

33 - الموجز في علم النفس التطبيقي، محمد الهيتمي، مطبعة الجامعة- الدار البيضاء، الطبعة الثانية: 1962، ص: 206.

34 - la formation des enseignants entre théorie et pratique ; PRRENOUD Philippe ; L'Harmattan ;Paris ; 1994 ;Savoir et formation ; pp : 117.

35 - تربية القهر، تربية الحرية...أصوات من الفكر التربوي المعاصر، محسن خضر، دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الأولى: 1430هـ/2009م، ص:83.

36 - نحو مفاهيم تربوية معاصرة في الألفية الثالثة، خالد أبو شعيرة و ثائر غباري، مكتبة المجتمع العربي، عمان- الأردن، الطبعة الأولى: 2010م/1431هـ ص: 45.

37 - المنهل التربوي، عبد الكريم غريب، (2/610).

38 - مناهج العلوم وتنمية التفكير الإبداعي، صبحي حمدان أبو جلالة، دار الشروق، عمان- الأردن، الطبعة الأولى: 2007م، ص:178.

39 - استراتيجيات الكشف عن الموهوبين والمبدعين ورعايتهم بين الأصالة والمعاصرة، مسفر الزهراني، دار طيبة- مكة المكرمة، الطبعة الأولى: 2003، ص: 31.

40 - مبادئ الإبداع، طارق السويدان ومحمد أكرم العدلوني، الطبعة الثالثة: 2004م، ص: 100.

41 - استراتيجيات الكشف عن الموهوبين والمبدعين ورعايتهم بين الأصالة والمعاصرة، مسفر الزهراني، ص: 31.

- مقدمة في الإبداع، ناديا السرور، دار وائل للنشر، عمان- الأردن، الطبعة الأولى: 1423هـ ص: 299.

42 - جريدة الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ : 26 نونبر 2011.

43 - موقع تربويات الإلكتروني، بتاريخ 21 مارس 2012 :www.tarbawiyat.net